دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الفكر السياسي العربي الحديث: العرب في مواجهة المد الاستعماري الأوروبي
المصدر:	مجلة جامعة ابن يوسف
الناشر:	جمعية إحياء جامعة ابن يوسف
المؤلف الرئيسي:	بلوط، عبدالغني
المجلد/العدد:	ع15,16
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
الصفحات:	361 - 367
رقم MD:	781365
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase, IslamicInfo, EduSearch
مواضيع:	العالم العربي، الفكر السياسي، التيارات الفكرية، القومية العربية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/781365

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفكـر السياسي العربي الحديث :
العرب في مواجهة المد الاستعماري الأوروبي

للدكتور الأستاذ عبد الغني بلوط
أستاذ جامعي في كلية العلوم بجامعة القاضي عياض

لـم أتطرق إلى فكرنـا السياسي القـديم والوسـيط والمتـأخر رغـم أهميتـه البالغـة بالنسـبة إلى موضـوعنا. إنـه رغـم اهتمـام المسـلمين والمذاهب الإسلامية والمدارس الفكرية بشؤون الولاية والإمارة والقضاء ورغم عناية الأمراء المسلمين بالجهاد، وبتدبير مختلف شؤون البلاد على امتداد رقعتها ، فإن مفكري العرب وفقهاء المسلمين لم يفردوا للفكر السياسي تآليفا إلا في النادر، ومن الذين ألفوا في الموضوع "الماوردي" و"المرادي" وجاءت كتاباتهم الأخرى في الموضوع ضمن كتب الفقه والتاريخ والسير وكتب النوازل.

ويقابل هذه المؤلفات عند الغربيين كتابات مونتيسكيو وجان جاك روسو وسبيونزا وطوكفيل وماكس فيبر والمفكرين الاجتماعيين المعاصرين.

وسأقصر اهتمامي على الفكر السياسي العربي الحديث وعلى الواقع السياسي للدول العربية.

قبيل المد الاستعماري في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي كانت الشعوب العربية والإسلامية تعرف ركودا ثقافيا وسياسيا خطيرا وكذا انحلالا وتفككا للأنظمة والسلطات، وكانت مظاهر الفوضى والتسيب تعم معظم أنحاء البلاد. هذا ما تؤكده

وتفيض فيه جميع التواريخ ومصنفات الفقهاء والمؤرخين والمفكرين المعاصرين لهذه الحقبة.

التنظيمات السياسية وغير السياسية السائدة في تلك الفترة كانت استمرارا للتنظيمات التي عرفتها الشعوب العربية والإسلامية في العصر الوسيط أي في القرنين التاسع والعاشر الهجري بعد أن أدركها البلى وأفسدها تعاقب الأزمان.

هكذا كانت الأوضاع في جميع البلاد العربية تعرف ضعفا وركودا عامين متفاقمين. كانت بعض التفاوتات بين بلد وآخر وكانت الخلافة العثمانية تتصدر الدول العربية والإسلامية للدفاع عن دار الإسلام والذود عن أراضيه.

وبإزاء هذا الركود السياسي وتدني المستوى التنظيمي والمعيشي خيم ركود فكري وثقافي مريع ، فما وصلنا من كتب وتآليف عن هذه الفترة لا يرقى إلى ما ألف في العصور الإسلامية الأولى (القرون الخمسة الأولى) ولا هو يقترب من مستواه، بل تكرار واجترار واشتغال بمسائل فرعية أو تقليدية أو قضايا ضيقة. ورافق ذلك كله إهمال يكاد يكون كليا بالعلوم والفنون والمعارف المستحدثة.

أثناء ذلك كانت البلاد الأوروبية تجني ثمار نهضتها، وتسارع الخطى على سبيل التحضر، والتمدين، والتنوير، والتطلع إلى عوالم وآفاق أرحب. بدأت نهضة أوروبا بطيئة في القرن الخامس عشر الميلادي، فوجدت من دعمها من رجال الفكر والسياسة وعامة الناس، فشملت جميع الميادين والمجالات وتشبع الناس بفكرها الجديد. كان أثر هذه النهضة بينا في السياسة والقانون والتجديد الديني والتنظيم والمستوى الاقتصادي والمستوى المعيشي والفكر والعلوم والفنون والآداب.

في هذا الإطار غير المتكافئ بين الدول الأوروبية الناهضة من جهة، والدول القديمة غير الناهضة ومن بينها الدول العربية الإسلامية من جهة أخرى، في هذا الإطار كانت الدول الأوروبية تتطلع إلى العالم العربي والإسلامي استكشافا وتنقيبا، وتعرفا على ثقافة الأمة وعلومها وآدابها، وتسربا إلى دوالب الحكم، وغزوا تجاريا ومضايقات سياسية ومالية واقتصادية وعسكرية. لم يجد هذا المد الاستعماري الذي كان وليد النهضة الأوروبية، لم يجد مقاومة شديدة من طرف الدول العربية الإسلامية لأنها كانت ضعيفة متكفككة، وعلى العكس من ذلك وجد ترحيبا وتحالفا من طرف بعض الأوساط العربية المتشددة.

كيف واجه العرب هذا المد الاستعماري ؟ إذا نحن أسقطنا من الاعتبار بعض الأوساط المتنفذة أي الضعيفة التي والت الاستعمار وانضوت تحت ألويته لمصلحة أو لحماية مالية أو قانونية أو حماية سياسية فإن المد الاستعماري قوبل بالاستنكار وبعديد من أشكال التصدي. فبالإضافة إلى الانتفاضات التلقائية والدعوات الجهادية كان هناك فوران سياسي واجتماعي ترتبت عن تغيرات في الأنظمة السياسية أو القائمين عليها ونتجت عن تنظيمات حزبية أو ثقافية ودعوات كثيرة تنادي بالتحديث والإصلاح، منها الذي يرتكز على الجانب السياسي الليبرالي أو اليساري ومنها ما يرتكز على الرابطة الدينية ومنها ذات الاتجاه القومي العروبي، ومنها من يتخذ القطر والوطن والنموذج الغربي إطارا لفكره ونضاله (الفكر الوطني) ...

بالإضافة إلى هذه التيارات الكبيرة والتي كان يجمعها الاهتمام بالواقع المتردي ومحاولة إصلاحه ونزعتها إلى التجديد، والانفتاح،

والاقتباس من الدول الأوروبية الحديثة، والتعامل معها ، كانت تيارات أخرى تبنت الفكر الاستعماري وتماهت معه ودافعت عن طروحاته، وتنكرت للقيم العربية الإسلامية، وتعاملت مع التراث تعاملا فلكلوريا. وهذا التيار الأخير هو الوريث لفكر تلك الطبقات المتنفذة الموالية للفكر الاستعماري قديما.

كان لكثير من هذه التيارات الفكرية والمذهبية جذوتها وعطاءاتها، وكذلك أفولها وإخفاقاتها. ومازالت هذه التيارات المذهبية والفكرية حية بيننا ، تتبناها أحزاب أو قيادات أو تنظيمات وقوى اجتماعية أخرى.

ونذكر بأن جل هذه التيارات والمذاهب تولدت عن صدمة العالم العربي والإسلامي بالمد الاستعماري، ونشأت وترعرت في أحضانه، ورعياته، ومازالت إلى حد الآن تعمل في إطاره وتعتمد على مرجعياته أو هي من حيث تشعر أو من حيث لا تشعر مرتبطة ومتأثرة ومنفعلة به .

وهي وإن كان لها دور كبير في إحراز الاستقلالات، وتسلم السلطات، إلا أنها لم تلاق نفس النجاح في تدبير هذه الاستقلالات، ولم تتمكن من إحداث تنظيمات سياسية سليمة وفعالة. زيادة على أن الجهود التنموية لم تكن كافية والمستوى المعيشي للفئات العريضة لم يتحسن كثيرا، وتفاوتات اجتماعية كبيرة يصعب تبريرها وهدر كبير للأموال والجهود.

لماذا هذا التقصير في الأداء ؟ ولماذا هذا القصور ؟ هذا ما سأتناوله في الفصل الثاني من هذا الباب وسأخص بالاعتبار الفكر الوطني الذي يقع عليه إجماع جميع الفئات ويحظى بالتأييد والمساندة. وكثيرا من الخلافات والاختلافات التي تعرفها الساحة السياسية هي

اختلافات وخلافات بين فئات تنتمي إلى نفس هذا الفكر الوطني وفي إطاره وليس خارجا عنه.

– الفكر الوطني :

الدفاع عن الأرض والممتلكات جبلة متأصلة في الإنسان ولا تحتاج إلى تعليل ولا إلى تأصيل وكذلك الشأن بالنسبة للمجال المكاني المشترك الذي ترتبط به مصالح الجماعة أو الذي هو في ملك أفراد منها.

ولقد عرفت بعض الشعوب بارتباطها بأصقاع وأراضي توارثتها الأجيال أو امتدت لها يدها وتمخض عنها تاريخ وحضارات واعتبرت تلك الأراضي مجالا طبيعيا لهذه الشعوب والأمم ووطنا لها.

هذا هو الأصل الذي يرجع إليه كل فكر وطني أي الارتباط بالأرض. وقد تأتي لتدعم ذلك عوامل أخرى كانتماء عرقي مزعوم أو الوحدة اللغوية أو التاريخ المشترك أو وحدة العقيدة (في الفكر الوطني تعتبر العقيدة لاحقة وليست أصلا) أو وحدة المسار أو وحدة الهدف أو خصوصيات.

ولقد دأبت الأمم على اعتبار كل أرض فتحتها وبسطت نفوذها عليها وطنا ودارا لها إلى أن تنتزعها منها أمة أو حضارة منتصرة.

في القديم كان التنازع على الأرض وعلى السيادة يقوم على مرتكزات دينية وحضارية، أما في الفكر الوطني الحديث فالتنازع بين مختلف الدول أرضي ثرابي صرف أو هو متذرع بمزاعم تاريخية. فكثير من الحروب الأوروبية كانت وراءها العصور المتأخرة غنية بتفاصيل ذلك (انظر كذلك التقطيع الجغرافي للدول الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية).

والفكر الوطني المعتمد والسائد في الدول العربية الإسلامية اليوم ليس أصيلا في الأمة العربية الإسلامية (أي ليس له أصل في الحضارة العربية الإسلامية) وإنما هو منقول بحذافيره عن الفكر الوطني الغربي إبان المد الاستعماري.

والفكر القومي العروبي هو فكر وطني موسع يستنكر الحدود التي فرضها الاستعمار ويقول بوطن عربي موحد من المحيط إلى الخليج.

وظهور الفكر الوطني بأوروبا كان سببا في نشأة كيانات سياسية مستقلة عن بعضها ومتنافسة فيما بينها. وأدى ذلك إلى نبذ اللغة اللاتينية التي كانت توحد شعوب أوروبا وانقسامها إلى لغات متقاربة متنابزة. كما أن التعصب لهذا الفكر الوطني أدى إلى حروب جسيمة مهولة. وإلى حدود السنوات الخمسين من هذا القرن كانت الدعوات على أشدها لتوحيد لغات أوربا والرجوع إلى اللغة اللاتينية وتوحيد أوروبا.

ولا يسعنا أن ننكر كثيرا من الإنجازات التي تحققت في إطار هذا الفكر الوطني، لكن في العقود الأخيرة بدأ الشعور بقصور هذا الفكر الوطني وبضرورة تجاوزه. وتعمل الدول الأوروبية على إقامة وحدة أوروبية واحدة متحدة.

بعد هذه النبذة السريعة عن الفكر الوطني سنعود لنقصر اهتمامنا على الفكر السياسي العربي .

كان التحرر والسيادة حلما بعيدا لا يراود النفود ، ولم تكن البلدان المستعمرة تمتلك الوسائل والشروط والمقومات لتحقيق هذا التحرر وهذه السيادة.

وبعد نضال كبير وكفاح مرير ومقاومة شديدة بريادة الفكر الوطني الناشئ قبل الاستعمار بالاستقلالات. كان استقلال هذه الدول مشروطا وما كان يمكن غير ذلك . لم يمنح المستعمر لهذه الدول الحديثة حق التصرف في شؤونها والتمتع بسيادتها إلا بعد ضمانات لمصالحه وامتيازاته وبعد تحديد نوع هذه السيادة وإطارها وحدودها وفحواها واشتراط علاقات تخول للمستعمر القديم حق الإشراف والمراقبة ورعاية المصالح. كانت هذه الشروط تعادل في جملتها التحكم عن بعد أو بواسطة في المستعمرات القديمة .

كانت جميع أجهزة الدولة والمناصب السامية في الإدارة والجيش والمالية تعج بالمستعمرين أو بالموالين لهم المتعصبين للفكر الاستعماري بدعوى أنهم أدرى بشؤون التدبير وأقدر على القيام بأعباء الدولة .

كان من الطبيعي أن يتكون رجالات الدولة وكبار الموظفين في جامعات الدولة المستعمرة ومعاهدها وينهلوا من ثقافة المستعمر في صيغها الدنيا، تلك الثقافة المهترئة وغير الفاعلة والتي لا تحظى بالاعتبار ولا بالاهتمام حتى في مواطنهاالأ صيلة. ذلك هو الشأن بالنسبة لكثير من الفكر العربي المتحزب أو المتفلسف المهمش.

هنا تكمن الصعوبات الأولى للدول الحديثة العهد بالاستقلال. كيف يمكن للدولة أن تقوم بأعباء الحكم وبالإنشاء والتدبير وهي لا تملك إلا فكرا وطنيا حماسيا مقاوما وخاويا ؟! وما العمل إزاء فئات متعارضة تربطها بالمستعمر القديم ارتباطات جد مختلفة. هذا ما نراه في كثير من الدول المستقلة ولو بعد مدة طويلة من استقلالها. نشاهد انفجار صراعات داخلية كان يظنها المرء قد ذهب زمانها وانعدمت مبرراتها بذهاب المستعمر القديم .